



obeikandi.com

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين، أخبارهما عندنا قليلة متقطعة، ولكنها من نوع الأخبار التي تدل باللحمة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير في وصف الطبائع والأخلاق، فتعرف منها أى رجل وأى امرأة كان أوباه من الرجال والنساء.

من أبناء الجاهلية عن النساء أن هند بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التي تعودت أن تستشير بناتها فى أمر زواجهن، وقد خطبها اثنان فقال لها أبوها: "أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش، أن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه فى الحسب والنسب والرأى الأريب، مدره أرومته وعن عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على صعة ولا يرفع عصاه عن أهله.

"فقلت: يا أبت! الأول سيد مضياع للحررة، فما عست أن تلين بعد إبانها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالتها. فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحررة العقلية وأنى لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه".

ونعلم من كلام هند هنا أنها امرأة قوية الأثوثة يرضيها أن تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة الطاعة ولا يرضيها أن تكون زوجها لعبة فى يديها مطواعاً لأمرها.

ولم يرد فى أخبار هند خبر غير هذا إلا كان فيه إبانة عن جانب من جوانب هذه الأثوثة القوية، ربما بلغ فى بعض أحوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا. يظل وحشية أثوية تشاهد من ضراوة الإنسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان.

كانت تلقب بأكلة الأكباد لأنها أكلت كبد حمزة عم النبى عليه السلام بعد أن قتل رجالها فى وقعة بدر. وحزن المرأة على رجالها شديد يشتد مع

اشتداد أنوثتها، فإذا كانت فى هذه المثلة وحشية بغيضة فهى وحشية أثنوية، تشتفى بها المرأة إذا جمع بها حزنها وأذهلها عن صوابها، وليست مما يشتفى به أقوياء الرجال.

ولم تنس هند حزنها على رجالها فى حضرة النبى عليه السلام إذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة.

قال صلوات الله عليه: تبايعتنى على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، إلى أن قال: ولا تزنين

قالت: يا رسول الله! هل تزنى الحرة؟

ثم قال: ولا تقتلن أولادكن!

فقالت: أما الأولاد فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت بهم أعلم!

وإن سؤالها: "هل تزنى الحرة؟ لمن تلك الأخبار التى قلنا أنها تدل باللحمة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير.

إنه سؤال يدل على الأنفة من الزنى لأنها - كرامة جاه، ولأن الزنى خلة من خلال الإماء والسبايا لا تعهد فى الحرائر والكريمات، فالأنفة من الضعة هنا أكبر من الإعراض عن الرذيلة، وقصتها مع زوجها الأول الفاكه بن المغيرة تنبئ عن هذه الأنفة وعن هذه العزة، فكانت إهانتها بتهمة الزنى لا تقبل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها، وإن شهد بها من تقبل شهادته فى الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة.

"أخرج الخرائطى فى الهواتف عن حميد بن وهب قال: كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم، فقام الفاكه وهند فيه، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولوجه،

فلما رأى المرأة ولى هارباً، فأبصره الفاكه فانتهى إليها فضربها برجله، وقال: من هذا الذى كان عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتني. فقال لها: إحقى بأهلك! وتكلم فيها الناس. فخلا بها أبوها فقال لها: يا بنية! إن الناس قد أكثروا فيك فانبتيني بذلك، فإن يكن الرجل صادقاً دسست إليه من يقتله فتقطع عنا المقالة، وإن يكن كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن، فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية أنه كاذب عليها. فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن. فلما شارفوا البلاد تنزرت حال هند وتغير وجهها، فقال لها أبوها: يا بنية! إنى قد أرى ما بك من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك. قالت: لا والله يا أبتاه! وما ذاك لمكروه. ولكنى أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، فلا آمنه أن يسمنى بسيماء تكون على سبه فى العرب. فقال لها: إنى سوف أختبره لك قبل أن ينظر فى أمرك، فصفر بفرسه حتى أدلى. ثم أدخل فى أحليله حبة من الحنطة، وأوكأ عليها بسير. وصبحوا الكاهن ففحس لهم وأكرمهم، فلما تغدوا قال له عتبة: أنا قد جئناك فى أمر، وقد خبأت لك خبيئاً أختبرك به فانظر ما هو؟ قال: برة فى كمره. قال: أريد أبين من هذا. قال: حبة من بر فى إحليل مهر، فقال عتبة: صدقت! انظر فى أمر هؤلاء النسوة. فجعل يدنو من إحداهن ويضرب كتفها ويقول: انهضى. حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال: انهضى غير رسحاء ولا زانية، ولتلدين ملكاً يقال له معاوية. فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها فشرت يدها من يده وقالت: إليك! والله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبو سفیان فجاءت بمعاوية".

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند بمن زوجها إنه اتهمها فأنفت أن تعود إليه بعد أن أراد هو أن يعيدها. لأنها تغضب لكرامتها أن تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء.

وينقل عنها في أسانيد متعددة أنها بشرت بسيادة معاوية على قومه  
فقالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه!

قال الشافعي فيما رواه الطبري: "قال أو هريرة: رأيت هندًا بمكة كأن  
وجهها فلقة قمر وخلقتها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي  
يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال: إنى لأرى غلامًا إن عاش ليسودن قومه.  
فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله . . وقال محمد بن سعد: أنبأنا  
على بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف، قال: نظر أبو سفيان يومًا إلى  
معاوية وهو غلام فقال لهند: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود  
قومه. فقالت هند: قومه فقط؟ ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة! . . فلما ولى  
عمر بن يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من أمر الشام خرج إليه معاوية فقال أبو  
سفيان لهند: كيف رأيت؟ صار ابنك تابعًا لابني! . فقالت: إن اضطربت  
خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك . . ."

وربما تآثرت الأخبار في كتب الأدب والتاريخ بغير هذه الأحاديث عن  
هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية، ولا حاجة إلى نقلها أو تلخيصها  
جميعًا لأنها تتفق في صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس  
والحسب، وإنما توافق ما نسميه اليوم "بالشخصية" الملحوظة بين ذويها  
وقومها وليست من عداد الزوجات والأمهات المنسيات في الغمار كما كان  
سائر النساء في بيئتها.

والقصة التي بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا أبا سفيان في حياته البيتية  
على صورة لم تذكر في قصة أخرى، فنعلم أنه سيد بيته كما كان سيد  
عشيرته "وأنه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله".

وبقية القصة الأخرى تبدى لنا أبا سفيان في صورة من صور الحياة  
البيتية، يقول من شاء أنها حياة تقدير ويقول من شاء أنها حياة تقدير.

فقد وصفته هند بأنه رجل "مسيك" وأنا "كانت تصيب من ماله الهنة والهنة ولا تدرى أكان ذلك حلالاً لها أم حراماً".

وكان أبو سفيان شاهداً فقال: أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه فى حل.

أما كلام عتبة فى غير ما تقدم من صفات أبى سفيان فهو من المشهور المتردد فى أبناء الجاهلية والإسلام، فقد كان سيداً "موسعاً عليه منظوراً إليه فى الحسب الحسب والرأى الأريب، مدره أرومته وعز عشيرته . . " كما قال عتبة فى تخيره لبتته بين الرجلين.

فمعاوية إذن يتتمى إلى أبوين قوين فى عشيرة قوية، ولعله ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه، فهو أشبه بها فى تكوين جسمه، وأشبه بها فى وسامة ملامحه، وأشبه بأصولها المعروفة فى خلق الأناة وبطء الغضب وإثارة المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب.

فأبوها عتبة كان قائد قريش فى وقعة بدر، وكان رأيه الذى أصر عليه ولم يثنه عنه غير إجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال، وأن يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع إلى عشيرته، وينظروا ما عسى أن يكون من شأنهم جميعاً بعد ذلك.

وقد يرى بعض الناظرين فى الوراثة أن المرأة التى اشتهرت باسم "أكلة الأكباد" لم ترث الأناة وبطء الغضب من أبيها، ولم تورث ابنها هذه الخليفة فيما أورثته من خلائقها.

وأنه لرأى فيه نظر، أو هو جدير بالنظر؛ فإن هذه الضراوة ليست من تلك الأناة.

ولكننا حريون أن نذكر أن "الغيظ" غير الغضب فى دخيلته وفى مدته وأجله.

فقد يشتهر الإنسان بأنه من أهل " الغيظ " ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيظ سنوات فى طوية صاحبه .  
هذا فيما ينطوى عليه الشعوران .

وغير هذا إن لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه، وإن شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماع أنثوى لا يضارعه جماع مثله فى الرجال . . . فلعلها فى طول الأناة كأبيها أو كابنها، ولكنها فى مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك .

ويجوز مع هذا كله أن يكون معاوية وارثاً بعض الخلق من جده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة فى الجدود ولا تكون فى الأمهات .

أما الوراثة التى لا شك فيها فهى وراثة تكوينه الجسدى من أمه، وهى وراثة طالما أشار إليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه، ولم يذكروا اسم أبيه، وقد ترهل من فرط الجسامة فى كهولته ولم يكن لأحد من السفينيين مثل هذا الترهل فى الكهولة أو الشباب .

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها فى أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها، فإذا صدق عليها وصف غالب عليها فوصف السياسة "الجالسة" التى تدبر وتدير وتترك المساعى والزحوف للعاملين المأمورين .

كان معاوية "أبيض جميلاً طويلاً أجلىح . . وقد أصابته لوعة فى آخر عمره فكان يستر وجهه" .

وروى الطبرى بإسناده عن ابن عمرو أنه قال: ما رأيت أحداً أسود من معاوية . وسئل: ولا عمر؟ فقال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود منه .

ونقل عن العوام بن حوشب أنه كان يقول: " ما رأيت أحداً بعد رسول

الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية. قيل: ولا أبو بكر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود".

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبيه، وناط بها حقه وحق عشيرته في الرئاسة، ودارت مساعيهم وظواهرهم ويواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلاً بعد جيل.

\*\*\*

وقدمنا أن هنكاً كانت تعاف الزنى أنفة ولا تعافه ورعاً ونزاهة، ولا تخطئ إذا فهمنا من بعض كلام أبي سفيان أنه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمصرته أن يصغره أحد لكذبه وإن لم يعلن ذلك بلسانه. وهكذا قال حسن سئل في بلاد الروم عن النبي عليه السلام. فإنه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف أن يكذب على مسمع من شهود سكوت!

ومدار الطموح كله في نفس معاوية على هذه الخصلة التي جعلت تراث القوم كله رهيناً بمزايهم الاجتماعية وجعلت هذه المزاي كلها رهينة بنظائر الرئاسة والسيادة.

ونحن نعرف ما تعلمه في صغره مما كان يعلمه في كبره. إذ لم تجر عادة الرواة والوؤرخين في الجاهلية بالتحدث عن الأ" فال الصغار إلا ما جاء عرضاً في أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم، ولا استثناء في ذلك لأبناء الأسر واليوتات ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال. ولعله لم يكن إهمالا من الرواة والمؤرخين واستصغاراً لأمر أولئك الأطفال، وإنما كان سكوتاً منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات جميعاً ولا ينفرد فيه أحد منهم يتعليم خاص لوظيفة خاصة.

وقد تعلم معاوية القراءة ولاكتابة والحساب، وتتفق الأخبار على كتابته للنبي عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحى ولا على حفظه من القرآن

تلقاها من النبي كما كان كتاب الوحي يتلقون الآيات لساعتها، والأرجح أنه لم يكن معروفاً بحفظ شيء من كتابة الوحي في أيام جمع القرآن الكريم، ولو علم عثمان - وهو من ذوى قرابته - أن عنده مرجعاً من المراجع يثوب إليه لرجع إليه كما رجع إلى غيره.

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم والإلمام بأخبار أيامهم كتعليم غيره من علية قومه. إلا أنه كان على شغف خاص بالاستماع إلى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرأها له من يعرف لغاتها، وقد سمع بعبيد بن شرية الجرهمي وعلم أنه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة فأرسل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ، فألف له كتاب الملوك وأخبار الماضين، وهو أول كتاب وضع في التاريخ باللغة العربية، ولم يبق منه أثر ولم يطلع عليه أحد يحدث عن فحواه.

وبلاغة معاوية في كلامه بلاغة سوية لا تعلق ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه: يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طبعه الميسر للعربي الفصيح من أبناء عصره، ومن رسائله المحفوظة رسالة إلى زياد بن أبيه يتوعده فيها، ويدعوه إلى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه، ويقول منها: "... إنك عبد كفرت النعمة واستدعيت النقمة، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر، وأن الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها. لا أم لك. بل لا أب لك. قد هلكت وأهلكت وظننت أنك تخرج من قبضتي ولا ينالك سلطاني. هيهات! ما كل ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأى ينصح في مشورته. أمس عبد واليوم أمير... خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية. وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الإجابة، فإنك إن تفعل فدمك حققت ونفسك تداركت، وإلا اختطفتك بأضعف ريش وتلك بأهون سعى. وأقسم قسماً مبروراً إلا أوتى بك إلا في زمارة تمشي حافياً من أرض فارس إلى

الشام، حتى أقيمك في السوق وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنت فيها  
وخرجت منه والسلام .. ."

ومن ردوده المحفوظة رده على الإمام على حين دعاه إلى البيعة يقول  
فيه: " .. لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان  
كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت  
بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى ربك  
الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن  
فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمرى ما حجتك على كحجتك على  
طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أباعك، وما حجتك على أهل الشام  
كحجتك على أهل العراق، لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام.  
وأما شرفك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وموضعك من قريش فلست أدفعه .. ."

وكان يتكلم مرتجلاً فيحسن الجواب في مقامه، ومنه جوابه لعدي بن  
حاتم حين أتاه يدعوه إلى بيعة على، فسمع منه دعوته على ملاً من صحبه،  
وأجابه قائلاً:

" .. كأنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً. هيهات يا عدى! كلا والله.  
إنى لابن حرب ما يقعق لى بالشنان. وإنك والله لمن المجليين على ابن عفان  
رضى الله عنه وإنك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به.  
هيهات يا عدى بن حاتم. لقد حلبت بالساعد الأشد .. ."

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال في صفيين: " الحمد لله  
الذى دنا فى علوه وعلا فى دنوه، وظهر ويطن، وارتفع فوق كل ذى منظر،  
هو الأول والآخر. والظاهر والباطن. يقضى فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما  
يشاء إذا أراد أمراً أمضاه وإذا عزم على شىء قضاه، لا يؤامر أحداً فيما يسلك  
ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. والحمد لله رب العالمين على ما أحييتنا

وكرهنا . وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين أهل العراق فنحن من الله بمنظر . وقد قال لالله سبحانه وتعالى : ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . . انظروا يا أهل الشام ! إنكم غداً تلقون أهل العراق فكونوا على إحدى خصال ثلاث : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا ببيضتكم ، وأما أن تكونوا قومًا تذبون عن نساءكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين " .

وهذه خطبة ربما أضيفت إليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها ، كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر ، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب من زمانها ولا موضعها ، وقد خطب معاوية لا شك في ذلك ، وما بقى من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو في طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها . ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال :

"أيها الناس . إن من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم امرتى حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وأنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتيكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وأن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . . اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبب لقاءى " .

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير المونق الجميل ، ولكنها غير كثير . فمنها قوله : "إن السلطان يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد" وقوله : "لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . أرخيها إذا شدوها وأشدّها إذا أرخوها" .

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص إحدى بناته ، وكأنه ملح منه تعجبا لفعله فنظر إليه وهو يقول : هذه تفاحة القلب .

فلم يكن من المفحمين ولا من ذوى السجية فى القول، وقد سمع غير مرة يقول ما معناه: إنما شينى حذر الخطأ فى الجواب.

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب إليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح فى النقل والرواية

وقد نسب إلى الحسن بن على رضى الله عنه إنه غيره أبياتاً كتب بها إلى أبيه يحذره من الإسلام، وهى:

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا

بعد الذين بيدر أصبحوا مزقاً

خالى وعمى وعم الأم ثالثهم

وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا

لا تركن إلى أمر تكلفنا

والراقصات به فى أمرنا الخرقا

فالموت أهون من قول العداة لقد

حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه ومن ينسبه، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب إليه، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش إلى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمراً دونه، وهى - بعد - أبيات ليست من نفس الشعر فى صدر الإسلام ولكنها تشبه المقطوعات التى فاضت بها الكتب الموضوعة فى حرب صفين وتكاد تلقى فى روع القارئ أنهم فى ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من الشر إلا ومعه سطر منظوم.

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التى قيل أنه بعث بها إلى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها إلى مبايعة يزيد بولاية العهد، وهى:

رأيت كرام الناس أن كف عنهمو

بحلم رأوا فلا لمن قد تحلما

ولا سيما إن كان عفواً بقدرة

فذلك أحرى أن يجبل ويعظما

ولست بذى لؤم فتعذر بالذى

أتاه من الأخلاق ما كان ألاما

ولكن غشا لست تعرف غيره

وقد غش قبل اليوم إبليس آدمما

فما غش إلا نفسه فى فعاله

فأصبح ملعوناً وقد كان مكرمما

وإنى لأخشى أن أنالك بالذى

أردت فيخزى الله من كان أظلمما

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله فى مقام كهذا

المقام، ولكن الأمر الذى يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمثل أنهم يستشهدون

بالآيات فى موضعها ويتأسون بها فى موقعها، وكذلك قيل أن معاوية ذكر

آيات ابن الأظنابة ساعة فراره من المعركة ليلة الهرير فعاوده الثبات وجعل

يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها:

وقولى كلما جشأت وجاشت

مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل أنه تمثل شعراً وهو وجود بنفسه، فقال:

وتجلدى للشامتين أريهمو

إنى لريب الدهر لا أنضعضع

ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها

الفيت كل تيممة لا تنفع

وقيل غير ذلك مما لا داعية للشك فيه إذا كان محصوله كله غير ذلك مما  
لاداعية للشك فيه إذا كان محصوله كله أنه كان يحفظ الأشعار والأمثال  
ويستشهد بها في مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين .

ولنا - أن نفهم أنه نشأ في الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة  
الموروثة، وتعلم ما يتعلمونه وتدريب على دربتهم التي ألفوها . إلا أنه كان إلى  
تربية التجارة والتدبير أدنى منه إلى تربية الفروسية والنضال، فلم يؤثر عنه من  
فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال لفعل يميزه بدربه خاصة على فنونها  
المعهودة في زمنه كالمسابقة وإصابة الهدف والسبق على متون الخيل والصمود  
للأقران في المبارزة، ولعل تربيته للفروسية لم تزد على القدر الضروري الذي  
يعاب الجهل به ولا يبرز إلى مكان التنويه والتمييز .

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين في مثل  
عمله وعمل أبيه، وهو تدبير التجارة القرشية وحمل اللواء لحمايتها والاستعانة  
بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالسلاح إذا وجب الذب عنها .

أما بعد الإسلام فهذه التربية، أو هذه النشأة، تقترن بسؤال آخر عن  
نصيبه من فقه الدين والثقافة الإسلامية، ويكاد يدعو الأمر هنا إلى سؤال غير  
هذا السؤال في أمر الدين من أساسه، فإن أناساً من الغلاة قد شككوا في  
إسلامه، بل جزموا بإسلامه عيل دخله ومداهنة، فهل كان لهذا الشك من  
مسوغ في عمله أو كلامه بعد إسلامه مع أبيه في عام الفتح كما هو معلوم؟

لقد تأخر إسلامه كما تأخر إسلام أبيه . فأسلما معاً في عام الفتح وهو  
في نحو الثالثة والعشرين، وليس هذا التأخر بموجب للشك في عقيدته، لأنه

يحدث في كل دين وفي كل دعوة، وينقسم الناس في جميع الدعوات الدينية والفكرية إلى مبادرين ومتردددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها إلا مع آخر مستجيب، ولا يندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق إيماناً وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم، وليس من الجائز أن تتخذ العادة المطردة في الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها. فما كانت الدعوات قط إلا هكذا أو لا تكون.

ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعله تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره: كان يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويقرأ القرآن ويستمع إليه، وكانت كل لفظة فاه بها وأحسبت عليه في مرض الوفاة تدل على الإيمان بقاء الله وعلى الإيمان بالجزاء في العالم الآخر، وما تواتر من أحاديث الملازمين له في ساعاته الأخيرة أنه كان يحتفظ بقلمه من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة أخذها من وضوئه وما زال محتفظاً بها حتى أوصى بأن تدفن في كفنه، وكل أولئك قد يسرى إليه الظن ممن تغالبه الظنون. إلا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوغة ممن لهم باطن غير ظاهرهم في العقيدة الدينية، ولا ننصور أن رجلاً له باطن وظاهر في أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثاني حفيديه. فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته أمر يفوق طاقة الإنسان.

قلنا في عقيدة صاحبه عمر بن العاص أنه "مسلم لاشك في إسلامه ولا شك في طبعه ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعاً في كل دين من الأديان ورأى من الآراء، فلما فتحت له الحيلة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئاً من عقابيل الجاهلية، لأنه نفص يديه منها وأيقن بضلالها.

"قال وقد اعترم لقاء النبي عليه السلام ما فحواه: فلقيت خالداً فقلت: ما رأيك! قد استقام المنسم والرجل نبي. فقال خالد: وأنا أريده. قلت: وأنا

معك . . . وكنت أسن منهما فقدمتها لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما، فأضمرت أن أبايعه على أن يغفر لى ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدى، فقال عليه السلام: ما لك يا عمرو! قلت أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنوبى . قال: إن الإسلام والهجرة يجبان من كان قبلهما . فبايعته، والله ما ملأت عينى منه وال راجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء منى " .

وقلنا قبل ذلك: "ومن سيرة عمرو بعد إسلامه نعلم أنه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصوم ويعيش بين ذويه مسلماً وكلهم مسلمون" .

ويقال فى معاوية كل ما يقال فى عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته فى أعمق أعماق الطوية على غير وعى من صاحبها حيث يستوحىها مع العقيدة فى أعماله الظاهرة وسرائره الخفية .

ومن حيل الطبع فى العلاقة بينه وبين ربه أنها لا تخرج عن وحي سليقته فى العلاقة بينه وبين الناس .

كان حريصاً على أن يبرئ ذمته ويلقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول، وهكذا كان اجتهاده فى نفى التبعة عنه بين يدى الله .

انظر مثلاً إلى حيلة طبعه حيث أراد أن يبرأ إلى الله من مأخذ البيعة بعده لابنه يزيد . قال فى إحدى خطبه "اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله قبله ما أملت وأعنته، وإن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك" .

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك: "ماذا بقى من التبعة على فى عقابيل هذه البيعة؟ غاية ما أوعى به حق الله فى أمر ولدى الذى أحبه أن أسأل له الموت إن كان غير أهل لولاية العهد بعدى . فإن كان الله قد أبقاه ولم يقبضه

فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله .

ومن حيل الطبع في خطبته الأخيرة بقوله: " إن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . اللهم إني أحببت لقاءك فأحجب لقاءتي " .

حجة مقبولة عند الله . مخلوق يحب أن يلقي خالقه فالله يحب أن يلقاه .

واختلاف طبائع الناس في الدين على غير وعى منهم لا معنى له إلا أنهم يتدينون على حسب طبائعهم ، وليس معناه أنهم يناقضون الدين ولا ينظرون في بواطنهم عليه .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن معاوية يعلم من فقه دينه ما لا بد أن يعلمه رجل كتب للنبي وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده ، ومرت به الأفضية التي فصل فيها ولادة الأمر على مسمع منه ، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأفضية ، فهو على نشأته الجاهلية والإسلامية لم يقصر في معارف دينه ودينه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين .

\*\*\*